مجلة (لغة – كلام) تصدر عن مخبر اللغة والتواصل- المركز الجامعي بغليزان / الجزائر
ISSN : 2437-0746 / EISSN: 2600-6308
http://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/176
المجلد 06/ العدد: 02 (2020) - ص 124/114

حجاجية المفردة في الخطاب القرآني: -القراءات القرآنية رافدا-

The Argumentation Of Single in Quranic discourse-: Qiraat Quranic Model-

بوسغادي حبيب
المركز الجامعي عين تموشنت، الجزائر
habib.bousghadi@cuniv-aintemouchent.dz

تاريخ الاستلام: 2019/08/06 تاريخ القبول: 2019/09/09 تاريخ النشر: 2020/03/31

ملخص البحث:

تحاول هذه الورقة البحثية ملامسة حركية المفردة القرآنية واستنطاق دلالتها من خلال فلك التركيب والسياق التي ترد فيه. فيقينا إنّ كلمات القرآن تختلف اختلافا رهيبا وعجيبا إذا ما قورن بكلام البشر، لما تحويه هذه الكلمات المرصوصة من حيوية جعلتها صالحة لكل زمان ومكان؛ وعليه فإنّ بحثنا سيتكئ على تناول القراءات القرآنية (المتواترة والشاذة) وتبيان حجاجيتها من خلال خاصية العلاقة الاستبدالية بينهما، تجعل الدلالات تتعدد وتتنوع، وبالنتيجة تأخذ بيد المتلقي فيتأثر ويذعن.

كلمات مفتاحية: الحجاج؛ المعنى؛ الخطاب القرآني؛ البلاغة؛ القراءات القرآنية؛ الدلالة.

ABSTRACT:

This paper is looking at characteristic of Quranic word ; Which in turn is Different from the rest of human speech contradiction Terrible and weird In terms of significance and suggestion for hime ;Or in terms of the objectives they perform. Lets In this research the subject argumentation in address of Quran ; When you Combination and comparison between Qiraat of Quran Hardly find contradiction or incompatibility Between them.

keywords; Argumentation ; meaning ; Speech ; Rhetoric ; Qiraat Quraniqus ; conception.

1. المفردة القرآنية:

سأقتصر في هذا العنصر بشيء من الاختصار، محاولا التعريف بكلمتي المفردة وعلم القراءات القرآنية؛ وإنّ الحديث عن المفردة القرآنية مبسوط في كتب الإعجاز والبلاغة، ولا أريد أن أتشعب أكثر حتى لا يأخذ البحث مساحة ويخرجني عما أريد أن أصل إليه، وحسبي أن أدلك على أبرز هذه المصادر والمراجع للاستزادة: المجيد في إعجاز القرآن المجيد للزملكاني (ت651هـ)، إعجاز القرآن للباقلاني (ت 403هـ)، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن لابن أبي الأصبع (ت 654هـ)، إعجاز القراءات القرآنية لصبري الأشوح، إعجاز النظام القرآني لأحمد عبد الوهاب، الإعجاز في تناسق الصوت والمعنى في المفردة القرآنية لمحمد الحوري، حول

الإعجاز البلاغي للقرآن لحسن طبل، مباحث في إعجاز القرآن لمصطفى مسلم، مقدمة تفسير ابن النقيب (ت698هـ)...

1.1تعريف المفردة:

يفرض عليّ مقام البحث أن أعرّج على التعريف بماهية المفردة لتكون المدخل، ولأنها الحلقة المتصلة ببقية الحلقات الآتية، وسنتكئ في بلورة معاني هذا العنصر على المعنى العام الذي تدور في فلكه (مادة مفردة)، مسترشدين في ذلك بما جاء في معجم المقاييس والعين .

ورد في المقاييس أنّ " الفاء والراء والدال أصل صحيح يدل على وحدة، من ذلك الفرد والوتر، والفارد والفرد : الثور المنفرد، وظبية فارد: انقطعت عن القطيع، وكذلك السدرة الفاردة، انفردت عن سائر السدر، وأفراد النجوم: الدّراري في آفاق السماء، والفريد الدّرّ إذا نظم وفصل بينه وبغيره"[1] ؛ والفرد ما كان وحده، والفريد: الشذر، والواحدة فريدة، وجاء القوم فرادى، وعددت الخرز والدراهم أفرادا أي واحدا واحدا، والله الفرد: تفرّد بالربوبية والأمر دون خلقه[2]

أمّا اصطلاحا: فتعرف بكونها: اللفظة الواحدة من الكلام المؤلفة من بضعة حروف ذات معنى[3].

أما المفردة القرآنية فهي :" الشكل الدلالي الوحيد الصالح بأفضل أداء صوتي ممكن، للتعبير عن كل أغراض السياق"[4]، أو هي :" المجموعة الصوتية التي تدل على معنى وهذه المجموعة هي وحدة كلامية تقوم مقام الجزء من الكل في الجملة، وهي الجزء الأولي في بناء النظم والوحدة المكونة له، فلا يغني أحدهما عن الآخر...وهي ليست كائنا معجميا إذ يتبين لقارئ القرآن أنها تمتاز بدلالة جديدة يضيفها الموضوع على حياد المعجم"[5]

2. منزلة المفردة القرآنية في الإعجاز:

تحدث العلماء المتقدمون والمتأخرون عن المفردة القرآنية وبيّنوا صور الإعجاز المتجلي فيها، شكّل بوضوح علو شأنها وشأوها، من خلال ما أوردوه من نصوص، وسنبين في هذه العجالة أهم أقوال العلماء القدامى دون ذكر للمحدثين منهم لأن معظم أقوالهم مأخوذة بما خلّفه الأوّلون:

- الجاحظ، أبو عمرو عثمان: يعد الجاحظ من أبرز علماء البيان الذين أولوا عناية بالغة بالمفردة القرآنية، وها هو يقول في هذا الصدد:" وقد يستخف الناس ألفاظا ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها، ألا ترى أنّ الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب، أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر، والناس لا يذكرون السّغب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة، وكذلك ذكر المطر؛ لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث، ولفظ القرآن الذي عليه نزل أنه إذا ذكر الأبصار لم يقل الأسماع...والجاري على افواه العامة غير ذلك، لا يتفقدون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر وأولى بالاستعمال"[6]

- الخطابي: يعد هذا الأستاذ البليغ من العلماء الذين بحثوا في بلاغة القرآن الكريم وأجالوا نظرهم فيه واستخرجوا منه كُنَزَهُ ودُرَرَه، وقد بيّن فيما موضع حسن اختيار الكلمات ووضعها في مواضعها هو البلاغة بعينها، يقول:" إنّ عمود هذه البلاغة...هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه

الأخص الأشكل به الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه: إما تبدّل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام، وإما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة"[7]

فمن هذا النص نلفي الخطابي يؤكد هذه الحقيقة، ما من شيء إلا ليرد على المشككين في بلاغة القرآن ومفرداته، هذه المفردات المنتقاة والمصطفاة لها موضعها الخاص بها لا يمكن أن تزحزح عنه وإلا لانهد البناء وتغير النظام.

- ومن العلماء الذين بينوا عدم اعتباطية المفردة القرآنية وأنّ كلا منها لها موقعها الخاص بها الشيخ الباقلاني الذي جعل الكلمة عنصرا رئيسا في بيان إعجازية النظم القرآني، يقول:" أنه قد علم أن تخير الألفاظ للمعاني المتداولة المألوفة والأسباب الدائرة بين الناس، أسهل وأقرب من تخير الألفاظ لمعان مبتكرة، وأسباب مؤسسة مستحدثة، فإذا برع اللفظ في المعنى البارع، كان ألطف وأعجب من أن يوجد اللفظ البارع في المعنى المتداول المبتكر"[8]

- الجرجاني: هذا الرجل أكّد على قيمة المفردة في إيضاح وإبراز جمال الصورة البيانية، يقول:" ومن المعلوم أن لا معنى لهذه العبارات (البلاغة والفصاحة...) وسائر ما يجري مجراها مما يفرد فيه اللفظ بالنعت والصفة وينسب فيه الفضل والمزية إليه دون المعنى، غير وصف الكلام بحسن الدلالة وتمامها فيما لو كانت دلالة، ثم تبرجها في صورة هي أبهى وأزين وآنق وأعجب وأحق بأن تستولي على هوى النفس وتنال الحظ الأوفر من ميل القلوب وأولى بأن تطلق لسان الحامد، وتطيل رغم الحاسد، ولا جهة لاستعمال هذه الخصال غير أن تأتي المعنى من الجهة التي هي أصح لتأديته ويختار له اللفظ الذي هو أخص به، وأكشف عنه وأتم له، وأحرى بأن يكسبه نبلا ويظهر فيه مزية"[9]

- الزمخشري: يعتبر الكوسج الأعرج من أعمدة البلاغة القرآنية، فقد وقف عند كثير من المفردات القرآنية وسبر أغوارها واستخرج كنهها، وبين نكتها ولطائفها، ويعتبر بحق وحقيق رجل البيان العربي، ومن يتصفح كتبه وخاصة تفسير الكشاف يلحظ قيمة هذا الرجل في استجلاء معاني آي الذكر الحكيم، يقول:" الحمد لله الذي أنزل القرآن كلاما مؤلفا منظما...وأبكم به من تحدى به من مصاقع الخطباء، فلم يتصد للإتيان بما يوازيه أو يدانيه واحد من فصحائهم ولم ينهض لمقدار أقصر سورة منه ناهض من بلغائهم"[10].

بعد هذا المسرد التتابعي التاريخي في بيان منزلة المفردة القرآنية وقيمتها الفنية والدلالية في أداء المعنى وإبرازه أمكننا القول أنه لا مجال للمقارنة بين استخدام القرآن لمفرداته وحسن انتقائها وتوظيفها واستخدام بقية الأجناس الأخرى لمفردات اللغة العربية، وإذ بنا نقول هذا الكلام ليس من باب التأكيد على هذه المزية لأن القرآن " قد أثبت جدارته بصفة الربط بين المتلقي والنص بوشائج متينة، وهذا الاستحقاق يكمن في ديمومة ربط المرء بالواقع: الواقع النفسي في القدرة على إثارته على مر العصور فتنبش مكونات أساسية في السلوك البشري، وهاهنا مخاطبة الخالق لما خلق"[11].

ويكفي القرآن فخرا أنّ استمداد جمال مفرداته من مصدر إلهي، من هنا يكمن سر سمو الفن القرآني في مضمار الفن الأدبي، بل إنّ" هذا السر الإلهي ليس خفيا على متذوق للعربية وفن الكلام، وهذه الخاصية

للمفردة القرآنية تسري في الآيات في تلاؤم تام، ولا يمكن أن نعدها تفضلا أو ترفا ذهنيا، كما هي الحال في كثير من الأدب، وهي المفردة سامية بنسبتها إلى منزلها في إطار من البيان الذي يعيه العرب خاصة، فعلى قدر ما تكون الجهة المبدعة قوية، تخرج الكلمات قوية مؤثرة"[12]، ومن وراء هذا السر تحدى الباري جميع ما خلق قائلا (فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ)(سورة الطور:34)

3. التعريف بالقراءات القرآنية:

لقد تنوّعت تعاريف العلماء للقراءات[13] وتغايرت أساليبهم في ذلك، وهي تعريفاتٌ تكاد تكون متقاربةٌ ومتماثلةٌ مع فوارق يسيرة، وها نحن في هذه العُجالة المختصرة نورد أهمّها على سبيل التمثيل: يقول ابن الجزَرِي:" علمٌ بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها بعزو النّاقلة"[14]؛ ويعرفها البنّا الدّمياطي:" علمٌ يُعلَم منه اتّفاق النّاقلين لكتاب الله تعالى، واختلافهم في الحذف والإثبات والتّحريك والتّسكين والفصل والوصل وغير ذلك من هيئة النّطق، والإبدال من حيث السّماع"[15]؛ أما القنوجي فقال هي :" علمٌ يبحث فيه عن صور ونظم كلام الله تعالى من حيث وجوه الاختلاف المتواترة ومباديه مقدماتٌ تواتريةٌ، وله أيضًا استمدادٌ من العلوم العربية، والغرض منه تحصيل ملكة ضبط الاختلافات المتواترة"[16].

فالذي يظهر جليًّا من خلال هذه الحدود أنّها اتّفقت على أنّ القراءات ما هي إلاّ اِختلافات في أداء الكلمات القرآنيّة حسبما نقله القرّاء مشافهةً، سواءٌ أتعلّقَ هذا الاختلاف بالظواهر الصّوتيّة أم النّحويّة أم الصّرفيّة أم الدلالية.

4. أقسام القراءات القرآنية:

نجد العلماء قد قسموها من حيث السند إلى ستة أقسام، ثم بينوا حكم كل نوع ودرجته من حيث القبول و الرد، وهذه الأقسام نوردها مرتبة حسب درجة الصحة و الضعف:

أ/ المتواتر: وهو ما رواه جمع لا يمكن تواطؤهم على الكذب عن مثلهم، ومثاله ما اتفقت الطرق في نقله عن السبعة.

ب/ المشهور: هو ما صح سنده بأن رواه العدل الضابط عن مثله وهكذا، ووافق العربية، ووافق أحد المصاحف العثمانية، سواء أكان عن الأئمة السبعة أم العشرة أم غيرهم من الأئمة المقبولين، واشتهر عند القراء فلم يعدوه من الغلط ولا من الشذوذ، إلا أنه لم يبلغ درجة المتواتر.

ج/ ما صح سنده وخالف الرسم أو العربية أو لم يشتهر الاشتهار المذكور، وهذا النوع لا يقرأ به و لا يجب اعتقاده .. ومنه قراءة: " لقد جاءكم رسول من أَنْفَسِكُم "، بفتح الفاء.

د/ الشاذ: وهو ما لم يصح سنده، كقراءة ابن السَّمَيْفِع: "فاليوم نُنَجِّيكَ ببدنك "، بالحاء المهملة

هـ/ الموضوع: وهو ما نسب إلى قائله من غير أصل، مثال ذلك: القراءات التي جمعها محمد بن جعفر الخزاعي ونسبها إلى أبي حنيفة، نحو قوله تعالى: (إنما يخشى اللهُ من عباده العلماءَ) برفع الله ونصب العلماء.

و/ ما يشبه المدرج من أنواع الحديث، وهو ما زيد في القراءات على وجه التفسير، كقراءة سعد بن أبي وقاص: " وله أخ أو أخت من أم " بزيادة لفظ "أم".. وكان الحسن يقرأ: " وإن منكم إلا واردها "، الورود الدخول، قال الأنباري: قوله: الورود، الدخول، تفسير من الحسن لمعنى الورود، وغلط فيه بعض الرواة فأدخله في القرآن"[17].

5. القراءات القرآنية مصدرها النقل والسماع ودليله الرواية:

في السنة الثامنة للهجرة[18] حدثت حادثة صاحباها عمر بن الخطاب وهشام بن حكيم، فقد ورد عن المسور بن مخرمة وعبد الرحمن القاري أنهما سمعا عمر بن الخطاب يقول: " سَمِعْتُ هِشَام بْنِ حَكِيم بْنِ حِزَام يَقْرَأُ سُورَةَ الفُرْقَان في حَيَاةِ رَسُولِ الله، فَاسْتَمَعْتُ لِقِرَاءَتِهِ فَإِذَا هُوَ يَقْرَأُهَا على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله، فكدت أساوره في الصلاة فانتظرته حتى سلَّم، فَلَبَبْتُهُ بردائه، فقلت: من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ، قال: أَقْرَأَنِيهَا رسول الله، فقلت كذبت، فوالله إن رسول الله لهو أقرأني هذه السورة التي سمعتك تقرأ، فانطلقت به إلى رسول الله أقوده، فقلت يا رسول الله، إني سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها وإنك أقرأتني سورة الفرقان، فقال: يا هشام، اقرأها، فقرأها بالقراءة التي سمعته، فقال رسول الله: هكذا أنزلت، ثم قال: اقرأ يا عمر، فقرأتها القراءة التي أقرأنيها، فقال رسول الله: هكذا أنزلت، ثم قال: إن القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ما تيسر منه "[19].

اعتمادا على هذا الحديث، ما يُستشف منه أن منشأ القراءات القرآنية هو الرواية ذات قطعية الدلالة المرفوعة إلى النبي في كيفية أداء ونطق آيات القرآن الكريم، وكما أنزلت عليه وحيا من عند الله تعالى، وإنما ننتصر لهذا الكلام هو رد على المستشرقين وكل من حذا حذوهم بأن مصدرية القراءات هو الخط والرسم؛ فنقول لهم:

أ/ أنّ القراءة كانت سابقة على الرّسم، وأنها كانت تتلقى مباشرةً مِنْ فِي النبي صلى الله عليه وسلم.

ب/ لو اقتصر نشوء القراءات المختلفة على بداءة الخطّ وخلوه من النّقاط وإسقاط الألفات وتجريده من الشّكل، لكانت حينئذ أسباب اختلاف القراءات خارجةً عن الاختيار، لأنّ هذه العوامل السّابقة الذّكر لا يمكن أن تعمل على نشوء قراءةٍ معينةٍ لها أتباعٌ وأشياعٌ أو أنْ تبتدع أسلوبًا خاصًا للقراءة له أنصاره، إلاّ بنسبة قليلة جدًّا، لأنّ في مقابل ذلك كانت القراءة المشهورة التي كان يقرأ بها النبي صلى الله عليه وسلّم، ويقرئ بها أصحابه ثمّ التّابعين والذين بعدهم، فكيف يقال بعد هذا إنّ خصوصية الخطّ القديم وانعدام النّقط والشّكل كانت أسبابا في نشوء القراءات، ثمّ لنفترض أنّ تلك الأسباب عملت على تغيير القراءة، فالقارئ الذي اشتبه عليه الأمر بسبب رداءة الخط، وغيرها من المواد، يجب عليه بمجرد سماعه للقراءة المشهورة الرجوع عمَّا كان عليه من القراءة.

6. موقف العلماء من الاحتجاج بالقراءات:

اختلف العلماء في الاحتجاج بالقراءات، وخاصة منهم النحويين، البصريين منهم والكوفيين، فمنهم من أجاز ذلك ومنهم من منع، وعليه فإن هذا العنصر لا يعنينا ولسنا بصدد الحديث عنه، وله مقامه في بحث خاص، أمّا الذي نريد أن نؤكد عليه ما قاله أعمدة أعلام عذا الفن، ونخص بالذكر عالمين جليلين أكّدا على أهمية

الاحتجاج والاستشهاد بالقراءات القرآنية وهما السيوطي وابن جني، أمّا الأول فقد قال في أصوله:"فكل ما ورد أنّه قرئ به جاز الاحتجاج به في العربية سواء كان متواترًا أو آحادًا أم شاذًا، وقد أطبق الناس على الاحتجاج بالقراءات الشاذة في العربية إذا لم تخالف قياسًا معلومًا، بل ولو خالفته يُحْتَجُّ بها في مثل ذلك الحرف بعينه"، إلى أن يقول:" اللغات على اختلافها كلّها حجّة ألا ترى أنّ لغة الحجازيين في إعمال (ما) ولغة التميميين في تركه كُلٌّ منهما يقبله القياس، فليس لك أن تردّ إحدى اللغتين بصاحبتها"[20].

أمّا الثاني فقد أكّد على أهمية الاحتجاج بالقراءات الشاذة التي جعلها في مصاف القراءات المتواترة، يقول:" وضربا تعدّى ذلك فسمّاه أهل زماننا شاذًّا، أي خارجا عن قراءة القراء السبعة المقدم ذكرها، إلا أنّه مع خروجه عنها نازع بالثقة إلى قرّائه محفوف بالروايات من أمامه وورائه ولعله أو كثيرا منه مساو في الفصاحة للمجتمع عليه...ولسنا نقول ذلك فسحا بخلاف القراء المجتمع في أهل الأمصار على قراءاتهم، أو تسويغا للعدول عما أقرّته الثقات عنهم، لكن غرضنا منه أن نري وجه قوة ما يسمى الآن شاذا وأنه ضارب في صحة الرواية بِجِرانه، آخذ من سمت العربية مهلة ميدانه، لئلا يُرَى مُرَى أنّ العدول عنه إنّما هو غضّ منه، أو تُهَمَة له، ومعاذ الله وكيف يكون هذا والرواية تَنْمِيه إلى رسول الله"[21].

7. حجاجية القراءات القرآنية:

نظرا لأنّ الأمثلة كثيرة جدا رمنا الاقتصار على تناول ثلاثة نماذج بالدراسة والتحليل، حتى يكون المتلقي على بينة مِنْ أنّه يمكن التوفيق بين القراءة المتواترة والقراءة الشاذة دون أن يكون هناك تناقض أو تضاد بينهما، وسيكون هذا بمثابة الرد على كل طاعن أو مشكك في مصداقية القراءات، متواترها وشاذها.

النموذج الأول: قال الله تعالى:(فَلَمّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنّ مُتّكَأً وآتَتْ كُلّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنّ سِكّينًا وَقَالَت اخْرُجْ عَلَيْهِنّ)(سورة يوسف، الآية31)

قرأ الجمهور مَتَّكَأً بتشديد التاء مع الهمز وهي القراءة الجيدة عند الزجاج، وقيل: هو اسم مكان، وقيل اسم للطعام وقيل هو الخمر في لغة كندة، وأصله: مُوْتَكَأ لأنه من توكّأت فأبدلت الواو تاء وأدغمت؛ قال ابن عطية في محرره:" (متّكأ) ما يتّكأ عليه من فرش ووسائد وعُبِّرَ بذلك عن مجلس أُعِدَ لكرامةٍ ومعلوم أنّ هذا النوع من الكرامات لا يخلو من الطعام والشراب فلذلك فسر مجاهد وعكرمة المتّكأ بالطعام"[22].

وقرأ ابن عباس وابن عمر وابن جبير ونصر بن عاصم ومجاهد وقتادة والضحاك والكلبي وابن هرمز والجحدري والأعمش والعطاردي وابن هرمز (مُتْكًا) بضم الميم وسكون التاء تخفيفا وتنوين الكاف على وزن فُعْل[23].

قيل: هو اسم لجميع ما يُقْطَعُ بالسكين كالأترج وغيره من الفواكه، وأنشدوا:

نَشْرَبُ الإِثْمَ بِالصّوَاعِ جَهَارًا.....وَتَرَى المتْكَ بَيْنَنَا مُسْتَعَاراً[24]

قال ابن جني في محتسبه:" وأمّا متْكا ساكنة التاء فقالوا: هو الأترجّ، أي: ثمرُ شجرٍ من جنس الليمون، ويقال أيضا: هو الزُّمَاوَرْدُ، أي: طعام من اللحم والبيض"[25]؛ وقال السيوطي في دره بسند عن مجاهد قال: "من قرأ (متّكأ) شدّها فهو الطعام، ومن قرأ (متْكا) خفّفها فهو الأُتْرُنْجُ"[26].

وأخرج القرطبي بسنده قائلا:" فجئن وأخذن مجالسهن (وأعتدت لهنّ متكأ) أي: هيّأت لهن مجالس يتّكئن عليها قال ابن جبير: في كل مجلس جامٌ فيه عسل وأترج وسكين حاد، ومنه قول الشاعر : فظَلِلْنَا بنعمةٍ واتّكأنا.....وشربْنَا الحلالَ من قُلَلِهِ أي: أكلنا"[27].

وعن النحاس عندما تطرق إلى كلمة (متّكأ) قال:" أصح ما قيل فيه ما رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: مجلسا وأما قول جماعة من أهل التفسير إنه الطعام، فيجوز على تقدير : طعام متّكأ، مثل (واسْئَلِ القَرْيَةَ)"[28].

قال أبو حيان:" أي يسرت وهيأت لهن ما يتكئن عليه من النمارق والمخاد والوسائد وغير ذلك مما يكون في مجلس أعد للكرامة ومن المعلوم أن هذا النوع من الإكرام لا يخلو من طعام وشراب وهنا محذوف تقديره فجئن واتكأن...وقال مجاهد المتكأ الطعام يحز حزا، قال القتبي يقال اتكأنا عند فلان أي أكلنا ويكون من المجاز عُبّر بالهيئة التي يكون عليها الآكل المترف بالمتكأ وهي عادة المترفين ألا ترى إلى قوله (ص) أما أنا فلا آكل متكأأو كما قال وإذا كان المتكأ ليس معبرا به عما يؤكل فمعلوم أن مثل هذا المجلس لابد فيه من طعام وشراب فيكون في جملة الطعام ما يقطع بالسكاكين"[29].

قال الرازي:" وفي تفسيره وجوه: الأول: المتكأ النمرق الذي يتكأ عليه، الثاني: ن المتكأ هو الطعام، قال العتبي والأصل فيه أن من دعوته ليطعم عندك فقد أعددت له وسادة تسمى الطعام متكأ على الاستعارة"[30].

التوفيق بين القراءتين:

نلاحظ أنّ هناك عموم وخصوص بين القراءتين، حيث أنّ (المتّكأ) المشددة أفادت المجلس مع الطعام، و(المتْك) أفادت نوعا من الطعام، وبالتالي لا وجود لتضاد وتناقض بين القراءتين قال ابن أبي حاتم بسنده عن الشقري قال: "(متّكأ) بكلام الحبش يسمون الترنج متّكأ"[31].

وقال الطبري مؤولا ذلك: "كان معلوما أن السكاكين لا تدفع إلى من دُعي إلى مجلس إلا لقطع ما يؤكل إذا قطع بها، فاستغنى بفهم السامع بذكر إيتائها صواحباتها السكاكين، فكذلك استغنى بذكر اعتدادها لهن المتكأ عن ذكر ما يُعْتَدّ له المتّكأ مما يَحْضُر المجالسَ من الأطعمة والأشربة والفواكه وصنوف الإلتهاء لفهم السامعين بالمراد من ذلك"[32].

والمعنى نفسه يؤكده الشوكاني: (متّكأ) قال هيأت لهن مجلسا وكان سنتهم إذا وضعوا المائدة أعطوا كل إنسان سكينا يأكل به"[33].

النموذج الثاني:(إنّ الذِينَ كَذّبُوا بِآيَاتِنَا واسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتّحُ لهُمْ أَبْوَابُ السّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الجّنةَ حَتّى يَلِجَ الجملُ في سَمّ الخيَاطِ وكَذَلكَ نجزِي المْجرِمِينَ)(سورة الأعراف، الآية40)

قرأ الجمهور (الجمَلُ) بفتح الجيم والميم تخفيفا، والجمل هو الحيوان العظيم المعروف، ومنه أخرج السيوطي في دره بسند عن ابن حميد عن شُرَيْحٍ أنه كان يقول لأصحابه: اخرجوا بنا إلى السوق فننظر إلى الإبل كيف خلقت؟"[34].

قال الرازي:" جسم الجمل أعظم الأجسام وثقب الإبرة أضيق المنافذ فكان ولوج الجمل في تلك الثقبة الضيقة محالا فلما وقّف الله دخولهم الجنة على حصول هذا الشرط، وكان هذا شرطا محالا، وثبت في العقول أن الموقوف على المحال محال، وجب أن يكون دخولهم الجنة مأيوسا منه قطعا"[35].

ومما يؤكد على هذه القراءة المخففة ما جاء في قراءة ابن مسعود التفسيرية، بسنده عن مجاهد قال: في قراءة ابن مسعود: (حتى يلج الجمل الأصفر في سمّ الخياط)"[36].

وأخرج ابن جرير عن الحسن في الآية قال: حتى يدخل البعير في خَرْقِ الإبرة"[37]

وقرأ ابن عباس وعلي ومجاهد وابن يعمر وأبو مجلز والشعبي ومالك بن الشّخّير والعطاردي وابن محيصن وابن مسعود وأبي وعكرمة وابن جبير والمازني والخليل (الجُمَّلُ) بفتح الميم وتشديدها[38].

قال ابن منظور:" قال الأزهري: وروي عن ابن عباس أنه قال: الجِمالات حبال السفن يُجمع بعضها إلى بعض حتى تكون كأوساط الرجال وهي التي تستعمل للسفن وتسمى القُلُوس واحدها قَلْس ..كأن الحبل الغليظ سمي جمالة لأنها قوى كثيرة جمعت فأُجملت جملة ولعل الجملة اشتقت من جملة الحبل"[39].

ورغم أن الطبري لم يستسغ قراءة التشديد ولم ينتصر لها حينما قال:" والصواب من القراءة في ذلك عندنا ما عليه قرأة الأمصار وهو فتح الجيم والميم من (الجمل) وتخفيفها، لأنها القراءة المستفيضة في قرأة الأمصار وغير جائز خلاف ما جاءت به الحجة متفقة عليه من القرأة"[40].

إلا أنه يصح الاحتجاج بها، وبالتالي فإننا نلاحظ أنّ كلتا القراءتين خطاب حقيقي تحدّى الله به الكفار وأيّسهم من دخول الجنة، فهم لا يَرِدُونها ولا يدخلونها مثلما لا يمكن للجمل ولا للحبل الغليظ أن يدخل ثقب الإبرة، وبالتالي لا تناقض ولا تضاد بين القراءتين.

النموذج الثالث: (أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الإبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ)(سورة الغاشية، الآية4)

قرأ الجمهور (الإبِلِ) بكسر الباء وتخفيف اللام، وقرأ علي بن أبي طالب والجحدري وابن السميفع ويونس بن حبيب وهارون كلاهما عن أبي عمرو وابن عباس ورويت عن أبي جعفر والكسائي وعيسى والجوني وعائشة وأبو المتوكل (الإبِلّ) بشد اللام.

قال أبو عمرو بن العلاء:" من قرأها بالتخفيف أراد البعير ومن قرأها بالتثقيل قال الإبلّ السحاب التي تحمل الماء للمطر"[41]

وقال أبو حيان في البحر:" (الإبل) وهي الجمال فإنه اجتمع فيها ما تفرق من المنافع في غيرها من أكل لحمها وشرب لبنها والحمل عليها والتنقل عليها إلى البلاد الشاسعة وصبرها على العطش وطواعيتها لمن يقودها ونهضتها وهي باركة بالأحمال الثقال وكثرة حنينها وتأثرها بالصوت الحسن على غلظ أكبادها وهي لا شيء من الحيوان جمع هذه الخصال غيرها... ولكونها أفضل ما عند العرب جعلوها دية، وناسب التنبيه بالنظر إليها وإلى ما حوت من عجائب الصفات ما ذكر معها من السماء والجبال والأرض لانتظام هذه الأشياء في نظر العرب في أوديتهم

وبواديهم وليدل على الاستدلال على إثبات الصانع وأنه ليس مختصا بنوع دون نوع بل هو عام في كل موجوداته كما قيل: وَفِي كُلّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلّ عَلَى أَنّهُ وَاحِدُ

وقال أبو العباس المبرد: الإبل هنا السحاب لأن العرب قد تسميها بذلك إذ تأتي إرسالا كالإبل وتزجي كما تزجي الإبل.."[42]

قال الزمخشري مستدلا برواية على صحة القراءة الأولى وفي الوقت نفسه عقّب على قول المبرد:" عن سعيد بن جبير قال لقيت شريحا القاضي فقلت أين تريد؟ قال: أريد الكناسة قلت: وما تصنع بها؟ قال أنظر إلى الإبل كيف خلقت فإن قلت: كيف حسن ذكر الإبل مع السماء والجبال والأرض ولا مناسبة؟ قلت: قد انتظم هذه الأشياء نظر العرب في أوديتهم وبواديهم فانتظمها الذكر على حسب ما انتظمها نظرهم..[ثم عقّب على المبرد قائلا]إنما رأى السحاب مشبها بالإبل كثيرا في أشعارهم فجوّز أن يراد بها السحاب على طريق التشبيه والمجاز"[43]
وقال العكبري:" الإبلِ يُقرأ بسكون الباء وهو من تخفيف المكسور، ويُقرأ بتشديد اللام لأنه نوى الوقف عليه فشدّد، كما يقال: هذا فرجّ ثم أجرى الوصل مجراه"[44]

التوفيق بين القراءتين:

وهو الاستدلال الذي جاء به الرازي في تفسيره بعد أن عدّد منافع وفوائد الإبل، ثم أورد المناسبة بين الإبل والسماء والجبال والأرض فقال :"في بيان ما بين هذه الأشياء من المناسبة..إنما رأى السحاب مشبها بالإبل في كثير من أشعارهم فجوز أن يراد بها السحاب على طريق التشبيه والمجاز، وعلى هذا التقدير فالمناسبة ظاهرة، أما إذا حملنا الإبل على مفهومه المشهور فوجه المناسبة بينها وبين السماء والجبال والأرض من وجهين (الأول) أن القرآن نزل على لغة العرب وكانوا يسافرون كثيرا، لأن بلدتهم بلدة خالية عن الزرع وكانت أسفارهم في أكثر الأمر على الإبل، فكانوا كثيرا ما يسيرون عليها في القفار مستوحشين منفردين عن الناس، ومن شأن الإنسان إذا انفرد أن يقبل على التفكر في الأشياء .. فإذا فكر في ذلك الحال وقع بصره أول الأمر على الجمل الذي ركبه، فيرى منظرا عجيبا وإذا نظر إلى فوق لم ير غير السماء، وإذا نظر يمينا وشمالا لم ير غير الجبال، وإذا نظر إلى ما تحت لم ير غير الأرض ..(الوجه الثاني) أنّ جميع المخلوقات دالة على الصانع"[45]

8. خاتمة:

- بعد هذه الجولة التي قمنا بها في مطارحة حيثيات حجاجية المفردة القرآنية، حاولنا من خلالها أن نوفق بين القراءات المتواترة والشاذة حتى يتبين للمتلقي تلك العلاقة القائمة بينهما، دون أن يكون بينهما تناقض أو تضاد، فرغم الشذوذ الذي وسمت به بعض القراءات إلا أنها تصلح للاحتجاج كما نص على ذلك جملة من الأعلام على غرار ابن جني والسيوطي.

- توصل البحث إلى أن المفردة القرآنية لها خاصية الإعجاز لا توجد في نظائرها في بقية الخطابات البشرية الأخرى.

- توصل البحث إلى حجاجية القراءات القرآنية ومدى تأثيرها في نفسية المتلقي، فرغم خاصية الاستبدال بينهما إلا أنه لا تضاد ولا تناقض بين المعاني المنسلة منهما وهنا يظهر الإعجاز ليرد على كل مشكك.

الهامش:

1. ابن فارس، أبو الحسين، معجم مقاييس اللغة، تح عبد السلام هارون، ط1، (دار الجبل، بيروت، 1991)، 500/4.
2. الفراهيدي، الخليل بن أحمد، العين، تح عبد الحميد هنداوي، (دار الكتب العلمية، بيروت، 2003م)، 310/3.
3. البستاني، محمود، القواعد البلاغية في ضوء المنهج الإسلامي، (مجمع البحوث الإسلامية، إيران، 1414ه)، ص227.
4. أبو عائشة، الأسباب الصوتية لاختيار المفردة القرآنية، تاريخ نشر المقال: (2004)، اطلع عليه: 2019/01/25؛ https://vb.tafsir.net/tafsir2361/#.XUwYwuMzbIU:.
5. ياسوف أحمد، جماليات المفردة القرآنية في كتب الإعجاز والتفسير، ط1، (دار المكتبي، دمشق، 1994م)، ص20.
6. الجاحظ، أبو عمرو، البيان والتبيين، تح عبد السلام هارون، (مط لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، 1948م)، 20/1.
7. الخطابي، أبو سليمان، بيان إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، تح محمد خلف الله ومحمد زغلول، (دار المعارف، القاهرة، د.ت)، ص29.
8. الباقلاني، أبوبكر، إعجاز القرآن، تح سيد صقر، ط1، (دار المعارف، القاهرة، 1963)، ص41.
9. الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، تعليق محمود محمد شاكر، (مط المدني، القاهرة، 1992م)، ص43.
10. الزمخشري، جار الله محمود، تفسير الكشاف، تح عادل عبد الموجود ومحمد معوض، ط1، (مكتبة العبيكان، الرياض،1998م)، 95/1.
11. ياسوف أحمد، جماليات المفردة القرآنية في كتب الإعجاز والتفسير، ط1، (دار المكتبي، دمشق، 1994م)، ص20.
12. المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
13. ينظر: القسطلاني، كتاب لطائف الإشارات لفنون القراءات،ط1، (تح مركز الدراسات القرآنية، المدينة المنورة، 1434ه)، 170/1؛ و الزركشي، بدر الدين، البرهان في علوم القرآن ، تح محمد أبو الفضل،ط1، (مكتبة دار التراث، مصر، 1957م)، 318/1؛ و الزرقاني، عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، تح فواز زمرلي، ط1، (دار الكتاب العربي، بيروت، 2004)، 336/1.
14. ابن الجزري، شمس الدين أبي الخير محمد، منجد المقرئين ومرشد الطالبين، تحقيق: زكريّا عميرات، ط1، (دار الكتب العلمية، بيروت، 1999م)، 9/1.
15. البنا الدمياطي، إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر، تحقيق: شعبان محمد إسماعيل، ط1، (عالم الكتب، بيروت/ مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، 1987م)، 67/1.
16. القنوجي، صديق حسن، أبجد العلوم، المعروف بـ الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم، (دار الكتب العلمية، بيروت، 1296ه)، 428/2.
17. الزرقاني، عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، تح فواز زمرلي، ط1، (دار الكتاب العربي، بيروت، 2004)، 297/2.
18. شاهين، عبد الصبور، تاريخ القرآن، ط3، (نهضة مصر، القاهرة، 2007م)، ص96-97.
19. البخاري، الصحيح الجامع، ط1، (دار ابن كثير، بيروت، 2002م)، ص1276.
20. السيوطي، جلال الدّين، الاقتراح في علم أصول النحو، قراءة وتعليق: محمد سليمان ياقوت، (دار المعرفة الجامعية، قناة السويس، 2006)، ص129-130.
21. ابن جني، أبي الفتح، المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، تحقيق:علي النجدي ناصف وعبد الفتاح إسماعيل شلبي، (المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1994م)، 32/1-33.
22. ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تح عبد السلام عبد الشافي، ط1، (دار الكتب العلمية، بيروت، 2001)، 238/3.
23. الخطيب، عبد اللطيف، معجم القراءات القرآنية، ط1، (دار سعد الدين، دمشق، 2000م)، 240/4.
24. متولي بدوي البني، موسوعة تفسير سورة يوسف، د.ط، (وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، د.ت)، ص707.
25. ابن جني، أبي الفتح، المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، تحقيق:علي النجدي ناصف وعبد الفتاح إسماعيل شلبي، (المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، 1994م)، 340/1.

26.السيوطي، جلال الدين، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، تح عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط1، (مركز هجر للبحوث العربية والإسلامية، الرياض، 2003)، 239/8.

27.القرطبي، محمد بن أبي بكر، تفسير القرطبي، تح عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط1، (مؤسسة الرسالة، بيروت، 2006م)، 329/11.

28.النحاس، أبو جعفر ، إعراب القرآن، اعتنى به خالد العلي، ط2، دار المعرفة، بيروت،2008م)، 449.

29.أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط وبهامشه البحر الماد من البحر المحيط والدر اللقيط من البحر المحيط، ط1، (مطبعة السعادة، مصر، 1338ه)، 302/5.

30.الفخر الرازي، تفسير الرازي، ط1، (دار الفكر، بيروت، 1981م)، 130/18.

31.ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم، تح أسعد محمد الطيب، ط1، (مركز الدراسات والبحوث بالرياض، 1997)، ص2133.

32.الطبري، ابن جرير ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تح عببد الله بن عبد المحسن التركي، ط1، (دار هجر بالجيزة، 2001م)، 130/13.

33.الشوكاني الصنعاني، فتح القدير، ط1، (دار النوادر، الكويت، 2010م)، 24/3.

34.السيوطي، جلال الدين، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، 391/6.

35.الفخر الرازي، تفسير الرازي، ط1، (دار الفكر، بيروت، 1981م)، 81/14-82.

36.السيوطي، جلال الدين، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، 391/6.

37.الطبري، ابن جرير ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، 189/10.

38.الخطيب، عبد اللطيف، معجم القراءات القرآنية، 47/3.

39.ابن منظور الإفريقي، لسان العرب، تح علي الكبير ومحمد حسب الله وهاشم الشاذلي، د.ط، (دار المعارف، القاهرة، (د.ت)، ص683.

40.الطبري، ابن جرير ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، 195/10.

41.الخطيب، عبد اللطيف، معجم القراءات القرآنية، 403/10-404.

42.أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، 651/8-652.

43.الزمخشري، جار الله محمود، تفسير الكشاف، 365/6.

44.العكبري، أبو البقاء العكبري، إعراب القراءات الشواذ، تح محمد السيد أحمد عزوز، ط1، (دار عالم الكتب، بيروت، 1996م)، 702/2-703.

45.الفخر الرازي، تفسير الرازي، 158/31.